من أوراق الرئيس (42)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

ثم طالب القذافى
بعــودة أقاربــه
فى الفيوم..

لاحظ الرئيس السادات أن المؤتمرات الدولية العربية والأفريقية كانت فرصة متاحــة للقذافى لأن يتحدث عن دوره المزعوم فى حركة التحرير0 فتكون له لهجة متعالية كأنه رئيس دولة عظمى 00 أو ينتهز الفرصة فيتغيب عن هــذه المــؤتمرات، أو يحــاول إفســادها إن استطاع00 ولم يستطع إلا أن يحدث فرقعات أو يعقد مؤتمرات صحفية أو يخطف طــائرات لكى يصرف الأنظار عن هذه الجهود الدولية من أجل السلام00 لعله يسرق الكاميرات حتــى تتركز عليه0

وقد حدث ذلك أكثر من مرة وبفلوسه التى ينفقها على الصــحفيين الأجانــب وعلــى المرتزقة وعلى الذين فى قلوبهم مرض00

ثم إن "المستشارين" قد أقنعوا القذافى بشىء جديد هو "ليبيا الكبرى" 00 أى ليبيا وقــد انضم إليها بعض الليبيين الموجودين على الحافة الغربية لوادى النيل فى محافظات: البحيــرة والفيوم والمنيا0

وقد سافر بعضهم إلى ليبيا0 ولو قرروا العودة فجأة إلى مصر، فسوف نرفضــهم00 فقد اختاروا القذافى بديلاً عن مصر؟!

ولابد أن للقذافى وجهة نظر فى اقتحام المسرح السياسى بالعنف ليكون له دور بالقوة0 وقد حدث ذلك كثيراً0

ولابد من تسجيل ذلك كله وعرضه على الباحثين والذين يقرأون التــاريخ00 ومــن يجدون فيه العبرة والموعظة الحسنة التى لم يجدها القذافى بعد00

فى أغسطس 1976 انعقد مؤتمر عدم الانحياز فى كولمبو عاصمة سيرى لانكا0 وهو من أخطر المؤتمرات التى شهدها تاريخ عدم الانحياز لأسباب كثيرة0 من بينها الظروف الدولية التى انعقد فيها هذا المؤتمر00 ومن بينها أيضاً تلك المتغيرات الدولية التى حتمت على شعوب عدم الانحياز أن تعيد النظر والتأمل واتخاذ القرار الحاسم فى معنى عدم الانحياز فى مواجهة الدولتين العظميين 00 وفى مواجهة المشاكل الداخلية للدول الأعضاء000

ومن أهم الأسباب أيضاً: ما أعلنه أقطاب عدم الانحياز من أفكار صادقة عميقة0

فمن الضرورى أن يكون لعدم الانحياز موقف مصيرى إيجابى0 فلم يعد يكفينا أن نقف وسطا بين روسيا وأمريكا0

ولكن يجب أن ندعم إرادتنا الوطنية وإرادة العالم الثالث فى مواجهة الدولتين العظميين 00

وقد ولدت حركة عدم الانحياز – كما قلت فى كلمتى فى هذا المؤتمر– فى أوج الحرب الباردة أى فى أتون حرب الأعصاب بين روسيا وأمريكا، ومحاولة كل منهما أن يكون لها معسكر00 أو تستقطب عدداً من الشعوب ومعنى هذا أن تكون لكل منهما منطقة نفوذ00 رغم إعلان كل منهما أنها لا تنوى ذلك 000

ولكن أصبح واضحاً لدينا تماماً أن هاتين الدولتين تلتقيان وتتفقان على أمور كثيرة0

ومعنى ذلك: الوفاق ليس إلا اتفاقاً جديداً0 وأن الوئام ليس إلا التئاماً لعلاقات جريحة0 أى أن الدولتين تتفقان على أمور كثيرة، لا نعرف منها إلا القليل0 والباقى نستنتجه من مسار الأحداث حولنا وفى عالمنا0 حتى أصبحت دول العالم الثالث أداة فى يد الدولتين، إحداهما مع الأخرى أو ضدها00

واتفقت الدولتان أيضاً على أنه لا مواجهة عسكرية بينهما ولا حروب ولا خسائر ولا دماء00 وإنما هناك لقاءات وحلول وسطى 00 وأن هناك تعاونا وتضامنا وما زلنا نسمع تصريحات تتحدث عن المناطق التى تزعم هذه القوة أو تلك أن لها حقوقا تاريخية أو تقليدية فيها بما يجعلها بمنأى عن القوة الأخرى0

وفى مثل هذا الحديث ردة وتقهقر إلى المفاهيم البالية التى يجب ألا نكتفى بإعلان رفضنا لها، بل يتعين أن نواجهها ونتصدى لها بكل حزم وصلابة، وحينما واجهت مصر والأمة العربية كلها اتفاق الدولتين العظميين على فرض ما أسمتاه بحالة "الإسترخاء العسكرى" فى منطقة الشرق الأوسط عقب اجتماع قادة البلدين فى مايو سنة 1972، وهو ما كان يعنى تكريس احتلال أراضينا وتجميد مشكلة الشرق، فلم أتردد فى اتخاذ القرار الذى أملاه شعورى بالمسئولية الجسيمة التى أتحملها، و ولائى لحق الشعب المصرى وحق شعوب العالم الثالث فى الحياة الحربة الكريمة0

وليس أبلغ فى التعبير عن هذا الوضع مما قاله صديقنا العظيم الرئيس تيتو، الذى تدين له حركتنا بالكثير وستظل دائماً مقترنة بإسمه من أن : "الوفاق ما زال مقصوراً على مناطق معينة من العالم0 وأن معظم الدول لم تشعر بعد بنتائج الانفراج الدولى، وأن دولاً عظمى معينة تستخدم الوفاق كستار لخلق مناطق نفوذ، وتقنين تدخلها فى الشئون الداخلية لدول أخرى، بل تتدخل تدخلاً سافراً"0

أكثر من هذا أن دولاً كبرى لجأت إلى تسوية بعض مشاكلها الدولية فيما بينها على انفراد، دون اللجوء إلى المنظمات الدولية التى تضطلع فيها دول العالم الثالث بدور نشط، وهذا اتجاه يترتب عليه إضعاف دور عدم الانحياز فى حسم المسائل الدولية0

وأكدت فى هذا المؤتمر أننا يجب أن نعيد تفسير معنى عدم الانحياز 0 وأن هذا موقف هام وخطير، وقلت يومها إنه إذا كان عدم الانحياز معناه "عدم التورط" أو عدم الارتباط بالتكتلات الدولية والاحتفاظ بحرية الحكم على تصرفات الدول، والمشاركة إيجابياً فى السياسة الدولية، دون إنحياز لأى معسكر دولى معين أو قوة بذاتها، فإن هذا التعريف أصبح قاصراً غير متفق مع ظروف الربع الأخير من القرن العشرين0 وإنما يجب تطوير مفهوم عدم الانحياز وجوهره بحيث يرتكز على حرية الاختيار وحرية الإرادة بعيداً عن ضغوط الدول الكبرى وتأثيراتها، سواء أكانت هذه الضغوط سياسية أم اقتصادية أم غير ذلك000

ولقد حققت مصر انتصاراتها ضد قوى الإستعمار العنصرى والإمبريالية بفضل إصرارها على الاحتفاظ بإرادتها المستقلة وحريتها فى اتخاذ القرار الذى تمليه مصلحتها

القومية والمبادىء السامية التى يؤمن بها شعبها، الذى ظل غيورا على استقلاله وسيادته طوال تاريخه0

ثم أننا يجب أن نتكاتف جميعاً فى الوقوف بحزم، ضد محاولات التدخل فى الشئون الداخلية لأى من دول عدم الانحياز ، لأن هذا التدخل الذى تصاعد فى السنوات الأخيرة بدرجة خطيرة، وأخذ صورا جديدة من القرصنة الدولية والإرهاب، والتخريف واستخدام المرتزقة والحرب الإعلامية والنفسية، هو فى الواقع تهديد موجه لنا جميعا0 إذا تسامحنا معه أو تركناه يستشرى فسوف تظن الدول الكبرى التى تلجأ إليه هى وعملاؤها الذين يأتمرون بأمرها أنه قد أصبح وسيلة متاحة لتحقيق أطماعها0

وقد تحقق كل هذا الذى حذرت منه0 وأشفقت على الدول الصديقة أن تقع فريسة لهذا الشر الدموى 00

وفى مؤتمر عدم الانحياز تخوفت من أن يحدث تصعيد فى المعارك الدموية الدائرة فى أفريقيا0

فقلت إننا سوف نتصدى بكل حزم لمحور تل أبيب– بريتوريا الذى يحاول إرهاب الشعوب الأفريقية والعربية إلى حد التلويح بإنتاج الأسلحة النووية00 والتهديد بإستخدامها0

ويبدو أن هذا المحور قد توهم أنه يستطيع أن يخفينا ولكننا، بعد أن تصدينا للدول العظمى حفاظاً على حريتنا وكرامتنا، لم نعد نخاف من هذه الدول الصغيرة0

وقد حاول القذافى أن ألتقى به أثناء انعقاد هذا المؤتمر، ولكنى رفضت0

وعاد إلى الهجوم "البذىء القذر" على مصر وشعب مصر وجيش مصر وتوهم، كما لا يزال، أن مثل هذه الضوضاء ترهب مصر أو تسقطها0

ولقد امتلأت أذنا القذافى بالكلام الغريب والنصح العجيب0 وكلها تؤكد له معنى واحدا: لم يبق أمامك إلا القليل0

وبعده تسقط مصر وتحكمها وحدك؟! ولذلك بدأ القذافى يستعجل الأحداث، فأرسل المتفجرات فى داخل مصر0 وهو يأمل أن تؤدى الإنفجارات إلى انفجار واحد هو الذى يحلم به وذلك بأن تسقط مصر عند قدميه00 إلى آخر هذه الهلوسات وهو معذور لأن هناك

مصريين قد باعوا له مستقبل مصر0 ودفع لهم غالياً0 ويتعجل المقابل لذلك كله0 وتفجرت قنابل وجرح مصريون أبرياء0 وازداد المصريون كراهية له0 ولم يتحقق له شيء مما يريد، أو مما أقنعوه بأنه ممكن فى أية لحظة000

وقبل انعقاد مؤتمر كولمبو لابد أن أشير إلى حدث هام من الضرورى وضعه فى مكانه الآن ونحن نربط الأحداث بعضها ببعض0 وموقف الدول العظمى من دول عدم الانحياز 0 وادعاء الدول الكبرى عدم التدخل فى الشئون الداخلية00 ثم موقف دول عدم الانحياز بعضها من بعض0 فمن الملاحظ أن العلاقات بين دول الكتلتين أكثر تماسكاً وتضامنا، من علاقات دول عدم الانحياز بعضها ببعض0

فقد طلبت من الهند قطع غيار لطيارات ميج 21 لأن الهند لديها تصريح من السوفيت بتصنيع هذه الطائرات0 ولم يخطر على بالى أننى عندما أطلب منها ذلك سأواجه برفض الهند0 وعندما أسأل يقال إن الإتحاد السوفيتى هو الذى رفض0 وإن الهند لا تملك إلا أن تقر الإتحاد السوفيتى على ذلك0

وكان موقفاً "حدياً"0 فالهند لا تملك أن تعطى قطع غيار0 مع أن كل ما طلبته أنديرا غاندى من مصر قد قدمته بكل نفس راضية ودون أن تتمن عليها ثم إن الإتحاد السوفيتى هو الذى رفض 00 وهذا موقف جديد 0

واستغرقت هذه المفاوضات مع الهند، والهند مع الاتحاد السوفيتى، أربعة شهور، وكانت النتيجة: لا 00لا نستطيع!

إذن لابد من اتخاذ قرار جذرى أيضاً– أى قرار حاسم نهائى0

فأعلنت إلغاء المعاهدة السوفيتية المصرية لأنها لم تعد ذات قيمة أو فعالية0

مع أن البند الثامن من هذه المعاهدة ينص على "تقوية القدرة القتالية للقوات المسلحة المصرية" لكى تصبح قادرة على تحري الأرض المحتلة0

فكيف يستقيم هذا مع حظر السلام بعد المعركة مباشرة حتى 1973

وأكثر من ذلك أن السوفيت قد دفعوا دولة كالهند لترفض إمدادنا بقطع الغيار00

فالمفهوم - مثلا- أن دول الكتلة الشرقية التى تدور فى الفلك الروسى هى التى ترفض0 دولة مثل تشيكوسلوفاكيا أو غيرها ترفض0 لأن مثل هذه الدولة تربطها بروسيا قيود من حديد 0 فإذا رفضت فلا لوم عليها00 أما الهند وموقفها، فكان جديداً ومفاجئاً0

ولذلك ألغيت المعاهدة- وأنهيت التسهيلات البحرية00 مما دفع روسيا بسرعة إلى أن تستغل ليبيا0 وأن يكون لها كل ما أرادت من المال والقواعد والقفز من ليبيا إلى أثيوبيا وأماكن أخرى فى قارتنا الأفريقية- وكل هذا قد حذرت منه أكثر من مرة، وفى أكثر من موضع فى الكلمة التى ألقيتها فى مؤتمر كولمبو00

ومضت وسائل الإعلام الليبية تهاجم مصر، والذين يسألون القذافى عن معنى هذا كله يقسم لهم أن هذا يتم من وراء ظهره0 وأنه لا يعلم أى شىء عن شىء0

ولكن القذافى كان عندما يجتمع بمجلس قيادة الثورة يقول إن ليبيا عددها مليون ونصف00 ولكن لها فى مصر أكثر من أربعة ملايين نسمة00

فهو يرى أن شريط وادى النيل الموازى للصحراء من أصل ليبى0 يعنى محافظة البحيرة00 وفيها أكبر تركيز من أولاد على 00 ومن بينهم محمود أبو وافية، وهو عديلى وكذلك فى المنيا وأسيوط والفيوم0 وأقنعه مستشاروه المصريون أن من الضرورى لكى تكون هناك "ليبيا الكبرى" أن يسترد الليبيين الموجودين فى مصر؟

وقد أرسل القذافى فى طلب أقاربه الموجودين فى الفيوم، وكانوا يسمون القذاذفة- أو الجدادفة 0 وقد سافر أقارب هؤلاء إلى ليبيا وأقاموا فى ليبيا وأعتقدوا أنهم سوف يطلبون العودة إلى مصر ولكنى سوف أرفض عودتهم، لأنهم ما داموا قد فضلوا ليبيا على مصر فليبقوا هناك0

والذى لا يدركه القذافى، هو أنه مهما حاول ومهما فكروا له فى خلق المتاعب لشعبه وللشعب المصرى، فإن الشعوب أطول عمراً، وأصدق حسا00 فسوف يبقى الشعب المصرى جارا طيبا للشعب الليبى .... و سوف يبقى الشعب الليبى صديقا شقيقاً0

وسوف يدرك الشعب الليبى أن القذافى قد أخطأ فى فهم الكثير من الأمور0 وأول أخطائه أنه أعطى لنفسه حجما ووزنا أكبر من الحقيقة0 إن هناك أناسا خدعوه فوضعوه فى الإطار غير الصحيح0

ولو رجعنا إلى سلسلة الأحداث التى وقعت فى مناسبات دولية كبرى لوجدنا أن للقذافى "سلوكا نمطياً" 00 أى سلوكا واحداً لا يتغير0

أى أنه فى كل مرة يكون حدث دولى لصالح العروبة أو السلام، يتخذ القذافى موقفا معاديا- كما أشرت إلى ذلك من قبل0 وهذا يحتاج إلى تسجيل وترتيب لكى نستخلص المعنى من وراء ذلك000

أما المعنى الذى يتبادر إلى الذهن بسرعة فهو أن القذافى لا يريد أن يشارك فى الأحداث القومية، وفى نفس الوقت لا يريد أن يغيب عنها00

أو لعله يريد أن يشارك بإفسادها أو إطلاق سحب من الدخان عليها، ثم تحويل الأنظار عنها0 وهذا ما دفعه إلى ارتكاب أعمال النسف والتفجيرات وخطف الطائرات ومهاجمة السفارات00 وقتل الأبرياء00 كل ذلك يحدث فى أوقات معروفة00

ولكن سببا نفسياً هاماً يدفع القذافى إلى ارتكاب ذلك كله0 هو أنه يريد أن يعتلى مسرح الأحداث بالقوة أو يريد أن يكون له دور من صنعه هو 00

وعادة يكون هذا الدور صارخا00 أى نشازا0 مع أن الإنسان الذى يريد أن يكون له دور فى الأحداث سوف يجد الكثير جداً الذى يستطيع أن يعمله لخدمة بلاده أو لقومه أو للسلام العالمى00 إن ميدان العمل السياسى واسع والمسرح ممدود ويتسع لألوف الرجال الذين يريدون أن يكون لهم دور فى رخاء العالم وسلامه0

وليس من الضرورى نسف الأبواب، وإنما يكفى جداً أن تدق عليها00

أو لعل القذافى قد قيلت له الجملة الشهيرة للمؤرخ الإنجليزى لورد أكتون- وهى جملة معروفة ومكررة على ألسنة "الفلاسفة" المحيطين به0 وهى أن هناك نوعين من الرجال: رجال يصنعون الأحداث ورجال تصنعهم الأحداث00 واختاروا للقذافى أن يصنع الأحداث00 واختاروا له أيضاً كيف ينصع الأحداث00 فلما حاول القذافى أن يصنع الأحداث، لم يعرف0 ولذلك فهو يحاول نسف الأحداث أو تخريبها أو إلقاء الوحل والدم عليها00 والحقيقة أنه لا يصنع الأحداث وإنما هو يرمى نفسه عليها00

وللتاريخ، وللأمانة التاريخية، يجب أن نستعرض ذلك0 ففى ذلك كشف لحساب قديم لم ينته بعد00 وفى ذلك عبرة أيضاً0

فليس التاريخ مسلسلا بوليسياً يثير ويهز ثم يريح أعصابنا بعد ذلك، عندما نكشف الحقيقة ونمسك "بالذى فعلها"- أى بالذى ارتكب الحادث أو الجريمة00 وإنما التاريخ هو صناعة الأحداث، والمشاركة فيها بالعرق والدم والإرادة ولذلك لا يمكن أن نقف متفرجين على الذى يحدث حولنا ويحدث لنا وبنا0 إنما يجب أن نقرأ وأن نفسر وأن نستخلص المعنى والعبرة00 فهذا واجب قومى أخلاقى أيضاً0

ولا بد أن يكون قد اختلط على القذافى أيضاً معنى التاريخ ومعنى الحرية أيضاً، رغم أن كلمة التاريخ وكلمة الحرية متلازمتان0 لأن التاريخ هو تاريخ الحرية0 أى تاريخ المحاولات المستمرة للشعوب فى أن تحصل على مزيد من الحرية00 فتتحرر من الخوف والجوع والمرض والجهل والظلم0 وكل كفاح الأمم هو كيف تخلع قيدا، وتلقى به فى الهاوية00

وتنزع ثوب الذل والظلم و ترتدى أجمل أثواب الكرامة والعدل00

وفى مناسبات كثيرة يتحدث القذافى عن حركات التحرير فى العالم التى يساندها أو يدعى ذلك0 ولكن ما الذى يفعله؟ إنه يساند ويمتن0 أو يساند ويشترط0 وهذا موقف يفسد عليه كل نياته الطيبة- إن كانت طيبة0

أما كيف وقعت الأحداث على المسرح السياسى بالعنف، تحقيقا لهذا المعنى الذى أراده القذافى، فسوف أحكيه بتفصيل ووضوح شديد0